مفهوما التعارف والتدافع
وموقعهما في الحوار من المنظور الإسلامي

عبد العزيز برغوت*

الملخص

يتناول البحث بالتحليل مفهومي التعارف والتدافع وموقعهما في الحوار الحضاري من المنظور الإسلامي، ومحاولة توضيح مسألة التعارف الحضاري والتدافع الحضاري بوصفهما من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم أولاً، ثم صلة هذا المسلم بأصحاب الحضارات الأخرى. ويوظف البحث المنهج التاريخي والتحليلي ليعالج موقع التعارف والتدافع في عملية الحوار، مستهدفاً بناء إطار عام لمسألة الحوار المنضبطة بقيم التعارف وقوانين التدافع، وتمتلك رؤية منسجمة تماماً مع الفطرة، ومستوعبة للتحولات الديناميكية في الفعل الحضاري. وتوظّف القوة بمفهومها الحضاري والعمراني والاستخلافي، حتى تنضبط بقوة الإيمان، وقوة القيم، وقوة المعرفة والعلم، وقوة البصيرة والرشد، وقوة الحكمة والبيان.

الكلمات المفتاحية: حوار حضاري، قيم التعارف، سنن تدافع، فعل حضاري.

Abstract

This paper analyses the position of two important concepts namely; reciprocal acquaintance "ta'aruf" and contention "tadafu'" in dialogue from an Islamic perspective. It demonstrates their role in building the relationship between the Muslim and others. The paper follows historical and textual analysis to develop a general framework in this regared. The paper concludes that the Islamic view of dialogue conforms to norms of human nature and recognizes the vibrant changes that civilizational action has underwent throughout history. As such, Islam views dialogue as a dynamic process taking place in a complex reality guided by the values of ta'aruf and patterns of tadafu'. The latter, requires the articulation of the concept of power in such a way that ensures controlling power by faith, value, knowledge, conscience and wisdom.

Keywords: civilizational dialogue, acquaintance values, contention laws, civilizational action.

---

* دكتوراه في الدراسات الحضارية، أستاذ بقسم الدراسات العامة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية– ماليزيا. بريد إلكتروني: hadharah@hotmail.com. تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٢٣م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٠/٩/٤م.

مقدمة:

لا شكّ في أنَّ الإنسانية اليوم وهي تعيش في واقع يتوجه نحو الكونية والعالمية الشاملة، ستنتهي إلى وضع عالمي معَوْلَم تتحدد فيه مواقع الأمم والشعوب، ولا سيّما ما يتعلق بأدوارها الحضارية الفاعلة، كما تتحدد فيه قواعد وأنساق الاتصال والتدافع والتلاقي بينها في الإطار العالمي المتشكل بسرعة وكثافة غير مسبوقة. وعلى الرغم مما نلاحظه من تدافع أحياناً وصراع في أحيان أخرى، فإن الأمر الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، هو أن الطريق الطبيعي السليم والفعال للتعامل مع قضايا الدول، والأمم، والشعوب، والثقافات، والحضارات هو طريق الحوار والتفاعل، وتبادل الأفكار والآراء ووجهات النظر، من أجل إيجاد الحلول السلمية المناسبة للصراعات والمشكلات الداخلية والخارجية. ومن هنا فإن موضوع الحوار الحضاري من أهم المداخل في مسألة العمل من أجل تحقيق التفاعل والتعايش الإيجابي في مسيرة المجتمعات والثقافات المختلفة والمتنوعة.

من يطلّع بأمانة وروية، على الرؤية الإسلامية في موضوع الحوار والتفاعل مع الآخر، سيدرك كيف أن القرآن الكريم أسس لرؤية كونية متوازنة ومتكاملة في الحوار والاتصال والتفاعل، كما سيجد في السيرة النبوية، وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وفي أعمال الخلفاء، والصحابة، والتابعين أمثلة واقعية حية لتجسيد قيم الحوار، والاتصال القرآني في ممارسات الأمة الإسلامية وحضارتها في صلتها مع الأديان، والأمم، والشعوب، والثقافات الأخرى. والباحث المنصف كذلك يستطيع أن يدرك بيسر القيمَ والمبادئ التي أحاطت بعملية الحوار في الإسلام؛ سواء أكان حواراً فردياً أم جماعياً، عقدياً أم عملياً، فكرياً أم سلوكياً. والدلائل القرآنية والتوجهات النبوية، والممارسات الإسلامية لا تدع مجالاً للشك في أن التوجه العام في الأمة، وحضارتها هو توجه السِّلم والحوار،[1] والتفاعل مع الآخرين مهما كانت مِلَلُهم ونِحَلهم. وقد عكس

[1] دون أن يعني هذا الأمر إغفال جانب القوة والتدافع المنضبط بالقيم الأخلاقية في الحالات التي تتطلب ذلك.

لنا النص القرآني العشرات من النماذج الواردة في القصص النبوي،[٢] وكيف أن أنبياء الله ورسله هم أول من سلك طريق الحوار والاتصال مع أقوامهم؛ فحاوروهم في قضايا العقيدة والشريعة والأخلاق والقيم والسلوك والثقافة وغيرها. كما أن هؤلاء الأنبياء تركوا تراثاً عملياً في حواراتهم واتصالاتهم مع أقوامهم، وبيّنوا لنا أنسب الطرق، وأصلح المناهج، وأسنى القيم المطلوبة في الحوار والتفاعل.

وجاءت الرسالة النبوية الخاتمة، والعالمية، والمحفوظة لتقدم للمسلمين وللعالم كله رؤية عالمية حضارية في الحوار والاتصال.[٣] فبيّنت هذه الرسالة العظيمة قيم الحوار، ومناهجه، وشروطه، وأخلاقياته، ووسائله، وأهدافه، وأوقاته الملائمة. وجعلت من الحوار وسيلة من أهم الوسائل في تبليغ دعوة الحق، وإيصاله للآخرين، وإقامة الحجة والدليل عليهم. والحقيقة الأساسية التي ركز عليها الإسلام في قضية الحوار هي أن هذه العملية أو هذه الوسيلة لا توظف، ولا تستخدم إلا لبيان الحق وخدمته في مختلف صوره وأشكاله. إن الحوار في الرؤية الإسلامية محكوم بجملة ضوابط وقواعد وشروط وقيم وأخلاق، وهو خاضع لسنن وقوانين، ويتم من أجل أهداف ومقاصد معينة.

– ويتناول هذا البحث بالتحليل مسألة الحوار من المنظور الإسلامي؛ إذ الحديث عن رؤية مؤسَّسة على مقولات صراع الحضارات، ومبنية على أسس التعارف الحضاري. وسيكون التركيز على إبراز الرؤية الإسلامية للحوار من خلال طرح مفهومي التدافع والتعارف، ومحاولة توضيح مسألة التعارف الحضاري والتدافع الحضاري بوصفهما من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم أولاً، ثم صلة هذا المسلم بالآخرين من أهل الكتاب، وأهل الأديان والملل والنِّحل الأخرى.[٤]

---

[٢] السودي، نجيب علي عبد الله. **محاورات الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم**، صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة، ٢٠٠٤م، ص٢٤ وما بعدها.

[٣] الوقفي، إبراهيم أحمد. **الحوار: لغة القرآن الكريم والسنة النبوية**، القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٣م، ص٧ وما بعدها.

[٤] ليس الهدف الأساسي من هذه الدراسة المقارنة والتعمق والبحث في الرؤية الكونية للآخر ومقولاته في الحوار، ولكن الإشارة العامة إلى بعض خصائص الرؤية الصراعية وتوجهاتها العامة دون تفصيل الحديث فيها، مع التركيز على إبراز الجانب الإسلامي من خلال عرض مفهومين مركزيين هما التعارف والتدافع. ولهذا فلن يجد

أولاً: الإطار النظري العام لدراسة الحوار الحضاري في الإسلام

١. الإسلام في طبيعته وخصائصه وأهدافه الكبرى:

لكي نفهم حقيقة الحوار[٥] الحضاري ونضعه في موقعه الصحيح من منظومة القيم الإسلامية الأساسية، ينبغي لنا أولاً أن نتعرف إلى طبيعة الإسلام، وخصائصه الأساسية؛ إذ يتّصف الإسلام في طبيعته العامة بأنه دين دعوة وبلاغ،[٦] ووسطية،[٧] وشهود،[٨] وقوامة،[٩] وقِدوة،[١٠] وفطرة،[١١] وآخرة ودنيا،[١٢] وحجة وبرهان،[١٣] ورحمة وتخفيف وأخلاق،[١٤] وعقل وعلم،[١٥] ودين أمة مُخرَجة للناس[١٦].... وهو في خصائصه العامة[١٧] يتصف بالربانية، والعالمية، والواقعية، والشمولية، والتوازن، والتيسير،

القارئ تحليلاً مقارناً، وإنما هي إشارات إلى بعض الخصائص والتوجهات العامة للنسق الغربي في الحوار دون أي تعمق؛ لأنه ليس من جملة أهداف البحث.

[٥] الحوار في اللغة من الحَوْر: وهو الرجوع عن شيء إلى شيء، والحَوْرُ: النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال إلى حال، والحِوارُ: الجواب، والمحاورة: المجاوبة، يقال كلَّمتُه فما أَحارَ إليَّ جواباً: أي ما ردّ إليَّ جواباً. واستحاره: استنطقه. والتحاور: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. انظر:

– ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط١، مادة حور، ج٤، ص٢١٧-٢١٩.

[٦] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

[٧] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ (البقرة: ١٤٣).

[٨] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ...لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

[٩] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ (النساء: ١٣٥).

[١٠] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠)، وقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

[١١] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠).

[١٢] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧).

[١٣] مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١)؛ انظر: (الأنبياء: ٢٤)، (القصص: ٧٥]).

[١٤] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)؛ وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨).

[١٥] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)؛ وقوله: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

[١٦] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

[١٧] لمزيد من التوضيح راجع:

والمصلحية الإنسانية، والجذرية، والمرونة والثبات، والإيجابية، والفعالية.... ويتصف الإسلام –كذلك–[١٨] بكونه ديناً خاتماً، ومهيمناً، ومحفوظاً، ومعجزاً ومطلقاً، وغائياً (مقصدياً) وبيانياً وعلمياً عقلانياً، واستخلافياً.

إن المحلل لهذه الميزات الكثيرة للإسلام سيدرك بصورة واضحة توجهه العام، والصبغة الأساسية التي تطبع رؤيته الكونية، وهي أنه دين منفتح على الآخر، مهيّأ بحكم طبيعته وأهدافه الكبرى لكي يكون عامل وصل وتفاعل بين مختلف الروافد الحضارية الكبرى.

وهذا هو الدور الفعلي الذي قام به الإسلام في دورته الحضارية الإسلامية الأولى، حين تفاعل مع حضارات العالم وثقافاته القديمة، وأسس لرؤية حضارية كبرى في الحوار والتدافع والتعارف كما سيشار إليه في الفقرات اللاحقة للبحث. فإذا كانت هذه الميزات مما يؤهل الإسلام لأداء دور حضاري، فإن أهدافه الكبرى تعزز هذا التوجه وتؤكده. وتتمحور هذه الأهداف حول قضايا كبرى أهمها: التعريف بالله سبحانه وتعالى ومنهج توحيده في الربوبية والألوهية والصفات، والتعريف بالإنسان والكون والحياة وصيرورتها ومصيرها في عالمي الدنيا والآخرة، والإجابة عن حقائق عالمي الغيب والشهادة وبيان صلتها بالاستخلاف، وبيان حقيقة الاستخلاف

– قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: القسم الأول**، ألمانيا: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط٢، ١٩٨٣م، ص٦٥ وما بعدها.

– القرضاوي، يوسف. **الخصائص العامة للشريعة**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، ١٩٨٩م، ص٥ وما بعدها.

– برغوث، الطيب. **التغيير الإسلامي: خصائصه وضوابطه**، الجزائر: دار الشهاب، ط١، د.ت.، ص٤٧–٦٧.

– برغوث، عبد العزيز. **مناهج الدعوة في المجتمع المتعدد الأديان والأجناس**، كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٥م، فصل خصائص الدعوة.

[١٨] برغوث، عبد العزيز. **الرؤية الكونية الإسلامية والتجديد: دراسة من منظور حضاري**، كوالالمبور: مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٦م، ص٤٥ وما بعدها. لأهمية هذه الخصائص ومن أجل معالجتها معالجة معرفية من الوجهتين الغربية والإسلامية انظر:

– حاج حمد، أبو القاسم. **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**، بيروت: دار ابن حزم، ط٢، ١٩٩٦م. (الجزء الأول: الخصائص الفكرية للحضارة الغربية المعاصرة؛ الجزء الثاني: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة؛ الجزء الثالث: الله والتاريخ).

ومسؤولية الخلق فيه، وبيان العقيدة والشريعة والأخلاق الصحيحة، وتزويد البشر بمنهج معرفة سنن الله في الآفاق والأنفس، وتزويد البشر بالمعرفة اللازمة عن تاريخ الأديان والأمم السابقة وقصص الأنبياء، وبيان موازين العدل والقسط في الأفعال والأعمال، وتقديم نموذج الحضارة والعُمران البشري المتكامل، وتزويد البشر بمنهج الحق في التوحيد والعبودية والسيادة والقوامة والشهود، وبيان منهج الإسلام في الدعوة والبلاغ والإرشاد والإصلاح.[١٩]

٢. أصالة الحوار في الإسلام ومحوريته:

إنّ الإسلام، في الأصل ومنذ انطلاقته الأولى، دين يتوجه بالخطاب للعالم كله، ومن ثَمّ فهو دين تفاعل واتصال وخروج للآخرين، وهو دين مدعم بالحجج والبراهين، والأدلة الغيبية والعقلية والكونية والتاريخية والنفسية والاجتماعية والتشريعية، التي تؤكد صدقه وقوته وقدرته على التفاعل مع الآخرين، وعلى أعلى مستويات الحِجاج والجدال العلمي الرصين بحثاً عن الحق. ومن هذا المنطلق فإن هذا البحث يعالج مسألة الحوار مع الذات أو مع الآخر مؤسَّساً على طبائع الإسلام وخصائصه المذكورة سابقاً. وعليه فإن مسألة الحوار والجدال بالتي هي أحسن، والتواصل مع الآخرين ليست مسألة تبعية في طبيعة الإسلام، وإنما هي محورية لكونه ديناً للناس أجمعين، ولا يمكن أن نتصور ديناً عالمياً بخطابه، وتوجهاته، وأهدافه كالإسلام يرفض الحوار والاتصال؛ إذ يبحث الإسلام عن المتحاورين والمتواصلين بشتى الطرق؛ ليبين لهم عقيدته، وشريعته، وقيمه، ورؤيته الكونية. ولهذا وجدنا نبي الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الناس في كل مكان ليشرح لهم الإسلام وحقائقه،[٢٠] لم يثنه عنه كيدهم، وعداؤهم، وكفرهم، وصدّهم، ونفورهم وضربهم للإسلام والمسلمين.

---

[١٩] برغوث. **مناهج الدعوة في المجتمع المتعدد الأديان والأجناس**، مرجع سابق، فصل الدعوة بين الغايات والأهداف.

[٢٠] الجليند، محمد السيد. **الأصولية والحوار مع الآخر**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ص٤٤ وما بعدها.

وبتدقيق النظر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وتعميق الوعي في السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، وسيرة أبناء الأمة في مختلف العصور يظهر جلياً أن الحوار سلعة مربحة في حياة الأمة، وعمل حضاري رفيع. وخير دليل على نزعة الإسلام الحوارية والاتصالية والتفاعلية مع الآخرين، ذلك التنوع الهائل في المسلمين أنفسهم، الذين جاءوا من مختلف الشعوب والقبائل والأديان والأجناس، وقدرة الحضارة الإسلامية الفاعلة على صهر مختلف الأجناس وقبول تنوعاتها، واختلافاتها ضمن إطار الإسلام وقيمه العليا بشرط قبولها بالمبادئ الأساسية لهذا الدين وهذه الثقافة الإسلامية، حتى أصبحت أعظم خاصية من خصائص الحضارة الإسلامية.[٢١] وما تنوع الثقافة الإسلامية وتنوع مشاربها وتجسداتها الكثيرة إلا دليل آخر على تواصل الإسلام وحواره مع الآخرين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حوار الإسلام وتواصله ليس لأغراض سياسية وقتية عابرة، أو لحل نزعات طارئة، لكنه خصيصة فطرية في الإسلام ذاته.

٣. الحوار: دوائره، ومجالاته، وأهدافه، وضوابطه العامة:[٢٢]

ومن هذا المنطلق فالحديث عن الحوار في الإطار الإسلامي هو حديث عن توجه حضاري عام في بنية الإسلام، وتوجيهاته، وتصوراته الكونية العامة. والحوار في النسق الإسلامي حوار متنوع ومتعدد ومتداخل ومتصل، يبدأ ويدور في دوائر كثيرة متداخلة. ومن أهم دوائر الحوار التي يمكن الحديث عنها: أولاً: الحوار مع الذات في إطار الذات بوصفها فردا وجماعة، وثانياً: الحوار مع الذات في إطار حضور الآخرين، وثالثاً: الحوار مع الآخر وفي إطار الآخر بوصفه فرداً وجماعة، ورابعاً: الحوار مع الآخر في إطار حضور الذات، وخامساً: الحوار الكوني والآفاقي.

ففي الدائرة الأولى يتحاور المسلم مع نفسه ليكتشف آيات الله، وآلائه ونعمه التي أصبغها عليه في عقله وقلبه ونفسه وفؤاده وجوارحه وأفعاله وسلوكياته إلخ، ثم يتحاور

---

[٢١] السيوطي، خالد عبد الحليم عبد الرحيم. **الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، الفصل الأول وما بعده.

[٢٢] الجليند. **الأصولية والحوار مع الآخر**، مرجع سابق، ص٤٠ وما بعدها.

مع أهله وأقربائه وشيعته وعشيرته وقبيلته وقومه إلخ، ثم يتحاور مع شعبه ومجتمعه إلخ، ثم يتحاور مع أمته بمفهومها الواسع، التي تشتمل على الثقافات والمجتمعات والدول والأجناس واللغات الإسلامية المتنوعة. فهو هنا يتحاور في ظل سيادة نموذجه الحضاري ونسقه الفكري ومجاله الثقافي الحيوي. ويدخل في هذا المحور دول العالم الإسلامي كلها.

وفي الدئرة الثانية يتحاور المسلم مع ذاته في تنوع مستوياتها، لكن في حضور الآخرين؛ أي في حضور الأديان والملل والأجناس والجماعات الأخرى المغايرة له في الرؤية والعقيدة والتصور. وهنا يتحاور المسلم مع الآخر المغاير، لكن في ظل نموذجه وتراثه وثقافته. ونستطيع هنا أن ندخل تلك المجتمعات الإسلامية التي تتميز بتعدد الأديان والأجناس فيها مثل ماليزيا وإندونيسيا.

وفي الدائرة الثالثة يتحاور المسلم مع الآخرين، لكن في إطارهم وثقافتهم وبيئتهم وسلطانهم وحضارتهم وقيمهم. وهنا يمكن إدخال الأقليات المسلمة الموجودة مثلاً في أمريكا وأوروبا، وبعض الأقليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا، مثل تايلاند وسنغافورة إلخ، فالمسلم يتحاور مع الآخرين في ظل سيادة قيمهم وثقافتهم وأنساقهم، لكن يحاول أن يتفاعل مع ذاته، ويتحاور مع الآخرين من أجل الحفاظ على هُويته وثقافته مخافةَ ذوبانها، وتحللها بفعل ضغط الثقافات والأنساق الأخرى، وكذلك يتحاور المسلم ليخلق مجالاً حيوياً للتأثير في الآخرين كما يحدث للمسلم اليوم في عالم الغرب عموماً.

وفي الدائرة الرابعة ينتقل المسلم بقيمه الحوارية إلى المستوى الحضاري العالمي؛ إذ الحوار الشامل مع الثقافات،[٢٣] والحضارات المختلفة والمتغايرة. وفي مثل هذا الوضع يكون الحوار حضارياً وعالمياً؛ إذ يتأكد فيه حضور الآخرين وحضور الذات في كل لحظة من لحظات الحوار. ويتجسد هذا المعنى في المجال الحواري العالمي الحيوي، الذي

[٢٣] ليكرك، جيرار. **العولمة الثقافية**، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٥، ص٣١-٤٥.

أنتجته العولمة،[٢٤] وجعلت معظم المجتمعات الإنسانية والثقافات المختلفة تتفاعل في لحظة العولمة هذه. وأما المجال الأعلى في الحوار فهو مجال الحوار الكوني والآفاقي الذي يتحاور فيه المسلم والآخرون مع المحيط الكوني والآفاقي الخارجي؛ إذ التعرف إلى الله ومخلوقاته ومعجزاته في الكون والحياة.

وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن الحوار مع الآخر في إطار حضاري، يتطلب من المسلم إدراكا لمختلف دوائر الحوار: فهماً، وسُنناً، ومناهج، ووسائل، وممارسة. فلكي ينجح المسلم في تحقيق حوار مثمر وفاعل وبناء مع الآخر، سواء أكان فرداً أم جماعة أم مجتمعاً أم ثقافة أم حضارة، عليه ابتداءً أن يتحقق من مسألة الحوار في شخصيته وثقافته ومجتمعه وأفعاله هو؛ الفردية والجماعية. وعندما يصبح الحوار ثقافة وجزءاً من التربية العامة للمسلم، ويتحول إلى نمط في حياته، وقيمة حضارية في وجوده وسلوكه وتفاعلاته، يكون أكثر تأهّلاً لتحقيق الحوار المبدع والمتفاعل مع الآخرين، من أجل تحقيق أهدافه الحضارية والاستخلافية، بوصفه مكلفاً بواجب الاستخلاف والإعمار والإنقاذ والشهود. والمسلم يكون فاعلاً في الحوار الحضاري العالمي، كلما كان ممتلكاً زمام الحوار مع الذات ومع الآخر، سواء في مجتمعاته هو أو في مجتمعات الآخرين، وسواء أكان أقلية أم أكثرية.

بعد أن اتضحت لنا دوائر الحوار؛ من الذات القريبة إلى الكون الآفاقي الفسيح، ينبغي الإشارة إلى أن موضوعات الحوار –كذلك– تتنوع، وتتداخل، وتتشابك، بدءاً من الموضوعات والقضايا البسيطة إلى أعقد القضايا التي تمس جوهر الحياة والوجود الإنساني. فالحوار قد يدور حول القضايا الوجودية الكلية مثل: موضوعات الخالق والمخلوق،[٢٥] والشهادة والغيب، والدنيا والآخرة، والاعتقاد والإيمان...، وقد يكون في قضايا الحضارة والعمران والاجتماع، وقضايا الفن والجمال، وقضايا النظر والعمل....

---

[٢٤] هذا التحليل لا يعني نفي وجود التفاعل والحوار والتواصل بين الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة الهندية والصينية والمسيحية وغيرها، وإنما يركز على أهمية بعض العوامل مثل: التسارع والكثافة والتأثير والحساسية التواصيلة، التي أصبحنا نلاحظها في ظل سيادة آليات العولمة، والتقنية والتكنولوجيا الحديثة، التي حوّلت العالم إلى قرية تفاعلية حسّاسة للغاية.

[٢٥] طنطاوي، محمد سيد. **أدب الحوار في الإسلام**، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ص٨٣ وما بعدها.

والحوار كذلك ينضبط بأهداف وغايات، فهناك حوار من أجل توضيح شيء غامض، وحوار من أجل دفع حجة الخصم، أو لبيان الحق، أو لشرح تعاليم الدين، أو لرفع الظلم، أو لتعليم شيء ما، أو للزيادة في المعرفة، أو لإيجاد الحلول للمشكلات والنزاعات بمختلف تنوعاتها، أو للتربية الاجتماعية والأسرية أو الدعوية أو السياسية...، أو حوار للدعوة. فموضوعات الحوار منبسطة ومتعددة ومتجددة، بدءاً من المسائل الأكثر بساطة إلى القضايا الأكثر تعقيداً. وأهدافه كذلك متعددة ومتنوعة بحسب الأوضاع، والرغبات، والإرادات. ولدينا نماذج رائعة لحوارات الأنبياء مع أقوامهم في مختلف القضايا، وحوار النبي عليه الصلاة والسلام مع الوفود من المسلمين وغير المسلمين، وحوارات المسلمين في مختلف مراحل تطور الحضارة الإسلامية؛ إذ نجد نماذج راقية للحوار في مختلف المجالات وبين فئات المجتمع المسلم والمجتمع غير المسلم المتنوعة.[٢٦]

وبصورة عامة قد يأخذ الحوار صورة الكلام والنقاش والجدال والحِجاج والرّد والتساؤل، وقد يكون في صورة أعمال فنية أو أدبية أو ثقافية، أو صورة أعمال وأنشطة وخدمات تقدم للآخرين من أجل التواصل أو التداول معهم في قضايا معينة. ويكون الحوار المثمر والمخلِص محكوماً بجملة من القيم والأخلاقيات، والضوابط، والشرائط، والفنيات، والتقنيات، والطرائق، والمناهج. والحوار المثمر ينبغي أن يكون مُخلصاً متفاعلاً تحكمه قيم الإخلاص، والصدق، والأمانة، والحكمة، والحق. كما ينبغي للمتحاورين أن يتحلّوا بالصفات التي تجعل الحوار مثمرا، ويمتلكوا قدرات الحوار ومهاراته العملية: مثل مهارات الاستماع والعرض والحِجاج وغيرها.

ثانياً: التعارف الحضاري إطاراً إسلامياً لممارسة التفاعل والاتصال والحوار

١. الحوار الحضاري وإطار "التعارف الحضاري":

لقد أصبح واضحاً أن الحوار الحضاري هو العملية التي من خلالها يتواصل الفرد، ويتفاعل مع ذاته، ومجتمعه، ومع الآخرين من أصحاب الثقافات والحضارات والأديان

---

[٢٦] راجع مثلاً:

– السباعي، مصطفى. **حواريات في التقارب الإسلامي المسيحي (قواسم مشتركة وأهداف متحدة)**، دمشق: دار الوراق ودار النيربين، ط١، ٢٠٠٥م، ص٥ وما بعدها.

المغايرة، ومع الكون الآفاقي الفسيح وما فيه من آيات ومعارف وسُنن وقوانين. ولكن عندما ينظر الإنسان إلى مسألة الحوار الحضاري من منظور إسلامي، فإن هذا الموضوع يتأطر ضمن إطار منهجي وقيمي عميق، هو ما سمي في بداية البحث "بإطار التعارف الحضاري".

والحوار الحضاري في هذا الإطار التعارفي الإنساني العالمي المؤسس على تكريم الإنسان وتقوى الله سبحانه وتعالى، إن هو إلا وسيلة من الوسائل المهمة في تحقيق أهداف الإسلام ومقاصده الكبرى التي أُشير إليها سابقاً. وفي هذا الإطار كذلك يصبح الحوار عامة والحوار الحضاري خاصة، محكوماً بمنظومة من القيم والأخلاقيات والمقاصد التي تحاول أن تنأى به عن الاستغلالية، والاستهزاء بالآخرين، وعدم احترامهم، والتكبر، وامتهان الآخرين وتسخيرهم ليكونوا وسائل لتحقيق مصالح خاصة، ونشر الفساد والظلم وسفك الدماء بغير وجه حق. وهنا يتحول الحوار إلى نفي للآخر، وإلى صدام معه وتعدٍّ عليه، وإلى فرض لمنطق الذات وقيمها وأهدافها على الآخرين، سواء اقتنعوا أم لم يقتنعوا. وفي هذه الحالة يستقوي منطق القوة، ويتضخم النزوع نحو الصراع الخلاق، والعنف المقنن بوصفه فلسفة، ومنطقاً للتعامل مع الآخرين. وهنا يفقد الحوار قيمته الحضارية والتربوية الإنسانية، ويتحول إلى أداة ووسيلة فحسب في يد من يريد استغلاله لمطامحه أو ثقافته أو نموذجه أو حزبه وغير ذلك. ولهذا نجد الإسلام يضبط مسألة الحوار مع الذات ومع الآخرين ضمن نسق تعارفي إنساني هادف.

٢. حقيقة إطار التعارف وأبعاده الكبرى:

إن الإطار الذي يوفره الإسلام لقضايا الحوار هو إطار "التعارف الحضاري"، بكل قيمه، وأخلاقياته، وشروطه، وضوابطه. وهو الإطار الذي يضع وسيلة الحوار في سياقها الصحيح، ويحدد لها الهدف المناسب، ويضع لها الشروط الصحيحة، ويبين منظومة الأخلاق والقيم التي ينبغي أن تحكمه ليكون مثمرا، ومحققا لمقاصد الناس ومصالحهم المشروعة.

وإطار التعارف الحضاري الذي يحدد أفق الحوار وامتدادته، وغاياته، ومعانيه، وقيمه، يتأسس أصالة على تكريم الآخرين واحترامهم، والمساواة والتفاعل معهم، وعلى الإقناع، والحجة، والدليل، والبيان، والتربية، والتعليم، والتبليغ، والدعوة، والإصلاح والإرشاد. كما أن هذا الإطار التعارفي الحضاري الإنساني مؤسَّس على معيار رباني عادل، لا فرقَ فيه بين عربي وأعجمي، وبين متحضر ومتخلف،[٢٧] وبين قوي وضعيف إلا بالتقوى. وعندما يُؤسس التعارف الحضاري بوصفه مقصداً من مقاصد الوجود الحضاري للبشرية على "منظومة التقوى" ومفرداتها الأخلاقية، والتشريعية، والعملية، والتربوية، فإن هذا التعارف يتحول إلى إطار لنفي الخبث، ونشر الخير والإحسان والتسامح والتفاعل والتواصل، الذي من خلاله يتعارف الناس ويتفاعلون من أجل تحقيق مصالحهم الدنيوية والآخروية، كما أمر الحق تبارك وتعالى. وعندما ينضبط الحوار بإطار التعارف، فإنه ينزع نحو الحق والتدافع بدل الباطل والصراع. وفيما يأتي توضيح لحقيقة التعارف الحضاري بوصفه إطاراً لتوجيه الحوار مع الذات ومع الآخر.

بداية يتأسس مفهوم التعارف، وفلسفته على الآية القرآنية الآتية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣) وبناء على هذا المبدأ الرباني العميق "التعارف" تتأكد لدينا قيم عديدة منها: "قيمة الإنسان وتكريمه"، و"قيمة التفاعل والتواصل الإنساني من أجل الحق"، و"قيمة التقوى" بوصفها مقياساً للتفاضل والتكريم، كما يؤكد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: روى الإمام البيهقي، من حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، خطب في خُطبة الوداع، في أوسط أيام التشرق، فقال: "يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى."[٢٨] من هذا المنطلق

[٢٧] المقصود هنا أن إطار التعارف الإسلامي مؤسَّسَ على احترام الإنسان، وعدّ التقوى مقياساً للتفاضل. وأما فيما يتعلق بالفعل الحضاري، فإن الناس يتفاضلون بفعاليتهم الحضارية، فالفرق واسع بين المتحضر والمتخلف.

[٢٨] رواه البيهقي في الشعب باب في حفظ اللسان (٢٨٩/٤)، وقال: في هذا الإسناد بعض من يجهل، عن جابر، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره، ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح، عن من سمع النبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣).

فإن "التعارف"، بوصفه مفهوماً إسلامياً تأسيسياً للعلاقة مع الذات ومع الآخر، يخصُ العالم كله، بشعوبه وقبائله، وأنه يدور حول قيمة "التكريم الرباني" للناس، ويُحكم بقاعدة التقوى بوصفها معياراً وميزاناً ربانياً يُميز على وفقه العمل الصالح والعمل الفاسد. وهذا الشكل يبين حقيقة التعارف:

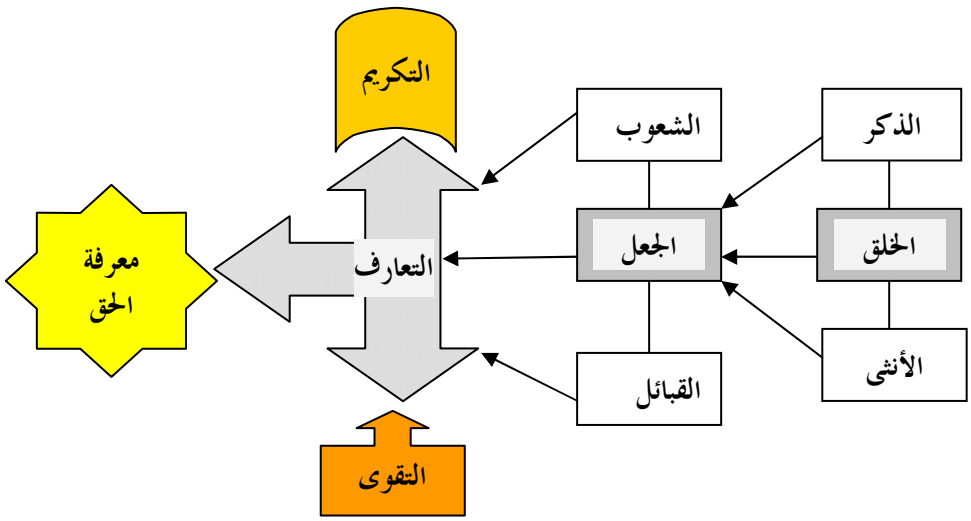

الشكل رقم ١: التأسيس لفكرة التعارف الإسلامي

والشكل الآتي يوضح لنا الأهداف العامة للتعارف الإسلامي، وكيف أن نهايته القصوى في عالم الشهادة تدور حول معرفة الله سبحانه وتعالى، وتكون تجسداته العملية الواقعية على مستوى قيام الإنسان بواجب الاستخلاف والعمران والحضارة المستقيمة على الطريقة، كما أمر الحق تبارك وتعالى، وكيف أن التعارف في مستوياته المتنوعة يهدف إلى تحقيق الجمع والتوحيد والتأليف والتواصل والتعايش والتساكن والتدافع والتكامل والتداول بين الناس.

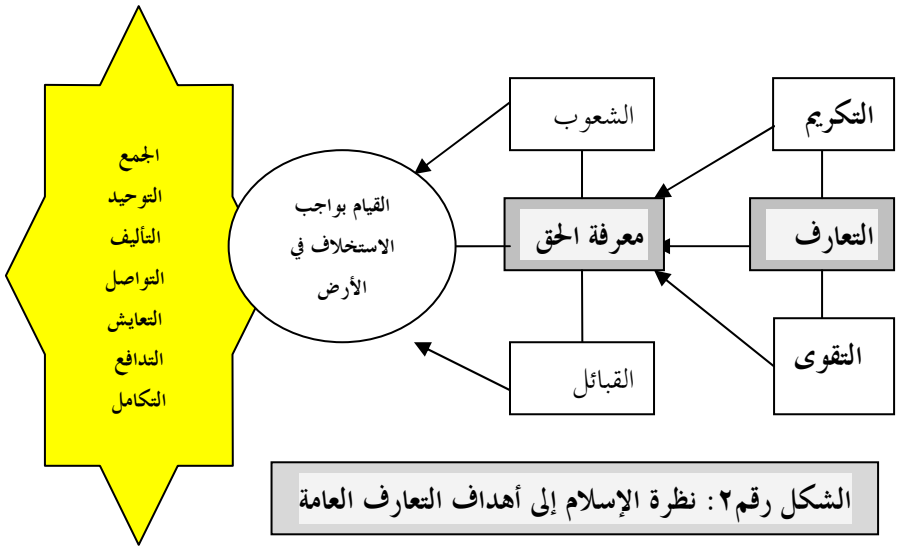

الشكل رقم٢: نظرة الإسلام إلى أهداف التعارف العامة

ولما كان مفهوم التعارف الإسلامي مفهوماً إنسانياً شاملاً لكل البشرية دون استثناء، ولما كان إطاراً أخلاقياً يضبط علاقات الناس وتواصلاتهم وتفاعلاتهم وحواراتهم بجملة من القيم والأخلاقيات والمبادئ، فإن هذا التعارف يعدّ قيمة أساسية من قيم عالمية الإسلام وخصائصه العامة الأخرى. فإذا كان الإسلام عالمياً، وواقعياً، وميسراً، وعلمياً، وإقناعياً، ومتوازناً، ومتكاملاً، وإنسانياً...، فإن هذه العالمية لا يمكن أن تتجسد على حقيقتها، ولا يمكن أن تمارس حق ممارستها إلا في ظل إطار التعارف الإسلامي الذي يدعو إلى التكريم، والسّلم، والعدالة، والمساواة، والتسامح، والحرية، والعقلانية، والتشارك، والتساكن، والتآلف. ولهذا "فعالمية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضارات الأمم الأخرى، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب، مؤثرتين ومتأثرتين."[٢٩] ومحكومتين بمنظومة قيم التعارف المنضبطة والمحكومة بتوجيهات الشريعة الإسلامية ومبادئها الكبرى؛ لأن الإسلام "يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى الوحدة الإنسانية العامة، والزمالة العالمية الشاملة، بأن يكون الناس

[٢٩] الرافعي، مصطفى. **الإسلام دين المدنية القادمة**، لبنان: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٠م، ص١٤.

جميعاً إخوة متوادين متحابين متساوين متكافئين، حتى يستطيعوا أن يحققوا الرسالة العظمى التي خلقهم الله من أجلها."[٣٠]

من هذا التحليل المقتضب لمسألة التعارف بوصفه إطاراً إسلامياً للتواصل والحوار والتفاعل بين الناس عموماً، فإن التعارف من المنظور الإسلامي يمكن أن يُدرس من جوانب متعددة، ويمكن أن يُنظر إليه من زوايا نظر متكاملة ومتداخلة. فالتعارف يمكن أن يُنظر إليه بوصفه رسالة وواجباً ينبغي أن يقوم به المسلم إزاء نفسه ومجتمعه وأمته والآخرين الذين يعيشون معه في هذا العالم، من أجل التعريف بنفسه، ودينه، وحضارته، والتعرف إلى دين الأمم الأخرى وثقافتها وحضارتها، ومن أجل بيان الحق وبيان منهجه في التوحيد، والعبودية، والسيادة، والعُمران، والإنقاذ، والدعوة، والإصلاح وغيرها. ويمكن النظر إليه بوصفه هدفاً من الأهداف السامية للخلق – للذكر والأنثى– وجعلهما شعوباً وقبائل؛ إذ على الإنسان أن يسعى لتحقيق هذا الهدف من أجل تنمية مداركه ومعارفه ووعيه على ذاته وعلى الآخرين، وعلى العالم.

ويمكن النظر إلى التعارف بوصفه وسيلة لاكتشاف آيات الله وسننه في الآفاق وفي الأنفس، وكذلك وسيلة أو أداة للابتلاء من أجل التكريم والترقي في المراتب عند الله سبحانه وتعالى. ويمكن النظر إلى التعارف –كذلك– بوصفه معياراً وميزاناً لقياس علاقات الناس وصلاتهم وتفاعلاتهم ومدى تحقيقهم لمراد الله في وجودهم واستخلافهم الأرضي. ويمكن النظر إلى التعارف قيمةً أخلاقية إنسانية عالية يتجسد من خلالها التوافق والانسجام والتساكن والتعايش بين الناس وتكريمهم، واحترامهم لقدرات وإمكانات الآخرين ونستطيع النظر إلى التعارف بوصفه عملية تعلُّم وتربية وتغيير للذات، واستفادة من خبرات الآخرين وجهودهم وإنجازاتهم. ويمكننا النظر –كذلك– إلى التعارف بوصفه إطاراً للحوار والتواصل والتفاعل والتكامل والتعلُّم؛ أي بوصفه إطاراً يجمع كل العناصر الأخرى والجوانب المتداخلة والمتكاملة للتعارف.

---

[٣٠] المرجع السابق، ص١٠٦.

ثالثاً: الحوار بين التعارف والتدافع الحضاري الإسلامي[٣١]

١. الحوار مع الآخر بين خط التعارف والتدافع، وخط التناكر والصراع:

لقد أصبح واضحاً أن إطار التعارف الحضاري -كما يرسمه الإسلام- إطار حيوي وأصيل وإيجابي في بناء العلاقات والصلات مع الآخرين. كما أن هذا الإطار يضبط عمليات التواصل الإنساني، والتفاعل البشري بقيم وأخلاقيات ومبادئ وضوابط موضوعية عادلة لا تفرق بين البشر على أساس اللون أو الجنس أو المال أو اللغة أو الثقافة، ولكن على أساس التقوى،[٣٢] بوصفه معياراً للتكريم وقبول الأعمال عند الله سبحانه وتعالى.

ومما سبق من التحليل يمكن القول إن الحوار بين المسلم والآخرين، أو بين الآخرين والمسلم من المنظور الإسلامي يتبع نموذجين أساسيين على الأقل؛ نموذج الحوار التعارفي المؤسَّس للعلاقات، والتواصلات، والتفاعلات، والأنشطة التي تتجسد فيها قيم التكريم ومعانيه، وتُحكم أفعاله بقيم أخلاقية منضبطة وواضحة؛ ونموذج الحوار التناكري المؤسس على سلطة المصلحة الخاصة، والرغبة في الهيمنة والسيطرة، الذي تتجسد فيه قيم الصراع والتنافر والرغبة في نفي الآخر.[٣٣] ويؤسِس الإسلام للنوع الأول من الحوار

---

[٣١] بالرجوع إلى الأصل اللغوي تعني كلمة تدافع: "الدفع: الإزالة بالقوة...وتدافعوا الشيء دفعه كل واحد منهم عن صاحبه، وتدافع القوم؛ أي دفع بعضهم بعضا." انظر:
- ابن منظور. **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة دفع، ج٨، ص٨٧.
- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر. **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٥م، ج١، ص٨٧. فالتدافع يقتضي الإزالة بالقوة. ولكن الإزالة بالقوة في المنظور الإسلامي تنضبط بإطار قيمي وأخلاقي، ومن دونه يتحول التدافع إلى صراع وتفكيك دون ضابط أو معيار قيمي كما يحدث عادة في النماذج الاستعمارية الصراعية.

[٣٢] هنا قد يثار تساؤل حول كون معيار التقوى مرتبطاً بالرؤية الكونية للإنسان ودينه وثقافته، وقد يكون معياراً نسبياً يُنظر إليه من الثقافات المختلفة على حسب توجهاتها الكونية العامة. وهذا التساؤل مهم ولا بدّ من معالجته. وفي هذا البحث يُؤخذ المفهوم بمعناه الإنساني المشترك الذي لا تختلف عليه الأديان والعقول الراجحة بوصفه من القيم الفطرية المغروسة في فطرة الإنسان؛ أي عملاً صالحاً حسناً لا تستهجنه النفوس البشرية بصورة عامة.

[٣٣] لفهم قضية الصراع وصدام الحضارات يمكن الرجوع إلى:

بطريقة منهجية موضوعية نجدها في حوارات الأنبياء مع أقوامهم، وفي حوارات الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع الكافرين، ونجدها في نموذج الحضارة الإسلامية الذي قام على التعارف، والتثاقف، والتفاعل، والإحسان للآخرين من أول يوم.

وعلى خط التعارف ومنطقه تتأسس فلسفة التواصل مع الآخر والحوار معه، وتكون الغاية الأساسية للحوار بوصفه وسيلة للتواصل والتفاعل هو "التعارف"، وأعلى قيمة في "منظومة التعارف" هي "معرفة الحق" التي منها تتحقق المعرفة بالخالق، والخلق، والرسالة الاستخلافية للبشر. ومن هنا تتأسس قوانين التواصل، والتفاعل، والتدافع، وأخلاقياته وضوابطه. ومن الناحية الواقعية للتعارف تتم عمليات تمييز الحق من الباطل، والطيب من الخبيث، والزَّبَد من النافع، والخير من الشر، والاستقامة على الطريقة من النكوص عنها. وهنا يظهر اتجاهان واضحان هما: مَنْ يسير على خط "التعارف" ويتبنى منطق التدافع الأخلاقي المشروع، ومَنْ يسير على خط "التناكر" ويتبنى منطق الصراع وإلغاء الآخر وإقصائه.

وفي المنطق التعارفي التكريمي يكون الحوار تعارفياً، وتآلفياً، وتواصلياً، وتشاركياً، وإقناعياً، وأما على خط "التناكر الصراعي" فيكون الحوار مصلحياً، وإلغائياً، وقهرياً مفروضاً، وبعيداً عن الإقناع والتواصل من أجل الصالح الإنساني، وإنما يوظف من أجل تحقيق مصالح فردية جزئية لصالح مشاريع أو أفراد أو حضارات أو أفكار معينة.

والمعلوم أن الإسلام جاء ليؤسس لخط التعارف التكريمي التدافعي بين الحضارات، والثقافات،[٣٤] والأمم، والشعوب. والمعلوم كذلك أن الرسالة الحضارية للإسلام تدعو

- التويجري، عبد العزيز. **صراح الحضارات في المفهوم الإسلامي**، المغرب: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٢م، ص١٢-٢٠.

- الويشي، عطية. "واقعنا بين العالمانية وتصادم الحضارات"، **سلسلة التنوير الإسلامي**، مصر: نهضة مصر، ع٥٩، ٢٠٠٣، ص٤٤ وما بعدها.

[٣٤] لمزيد في هذا الموضوع راجع:

إلى القيم الإنسانية الكبرى التي تجمع وتوحّد، وتدعو إلى كل ما فيه مصالح الناس من السلام والأمن والحرية والعدالة والمساواة والتكريم وغيرها. يقول الأستاذ التويجري: "ومفهوم التعارف في الإسلام ذو سعة يمكن أن يشمل كل المعاني التي تدل على التعاون والتساكن والتعايش، ويمكن أيضا أن يستوعب التعارف قيمَ الحوار والجدل بالتي هي أحسن والاحترام المتبادل."[٣٥] ويضيف الأستاذ حسان حتحوت موضحاً طبيعة الإسلام ورؤيته إلى الآخر، وبشكل خاص في حالة الحوار مع أهل الكتاب: "ليس ثمة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤) في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعاً للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين، وإذا كان هذا التعايش لا يعني أننا متفقون في كل شيء."[٣٦] وفي الشكل الآتي تلخيص لنموذجي الحوار:

– وللر، هارالد. **تعايش الثقافات، مشروع مضاد لهيتغتون**، ترجمة: ابراهيم أبو هشهش، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٥م، ص٥٦ وما بعدها.

[٣٥] التويجري، **الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الوحد والعشرين**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسسكو، الرباط، ١٩٩٨، ص١٧.

[٣٦] حتحوت، حسان. **رسالة إلى العقل العربي المسلم**، القاهرة: دار الحياة، ط١، ١٩٩٨م، ص١٥٣.

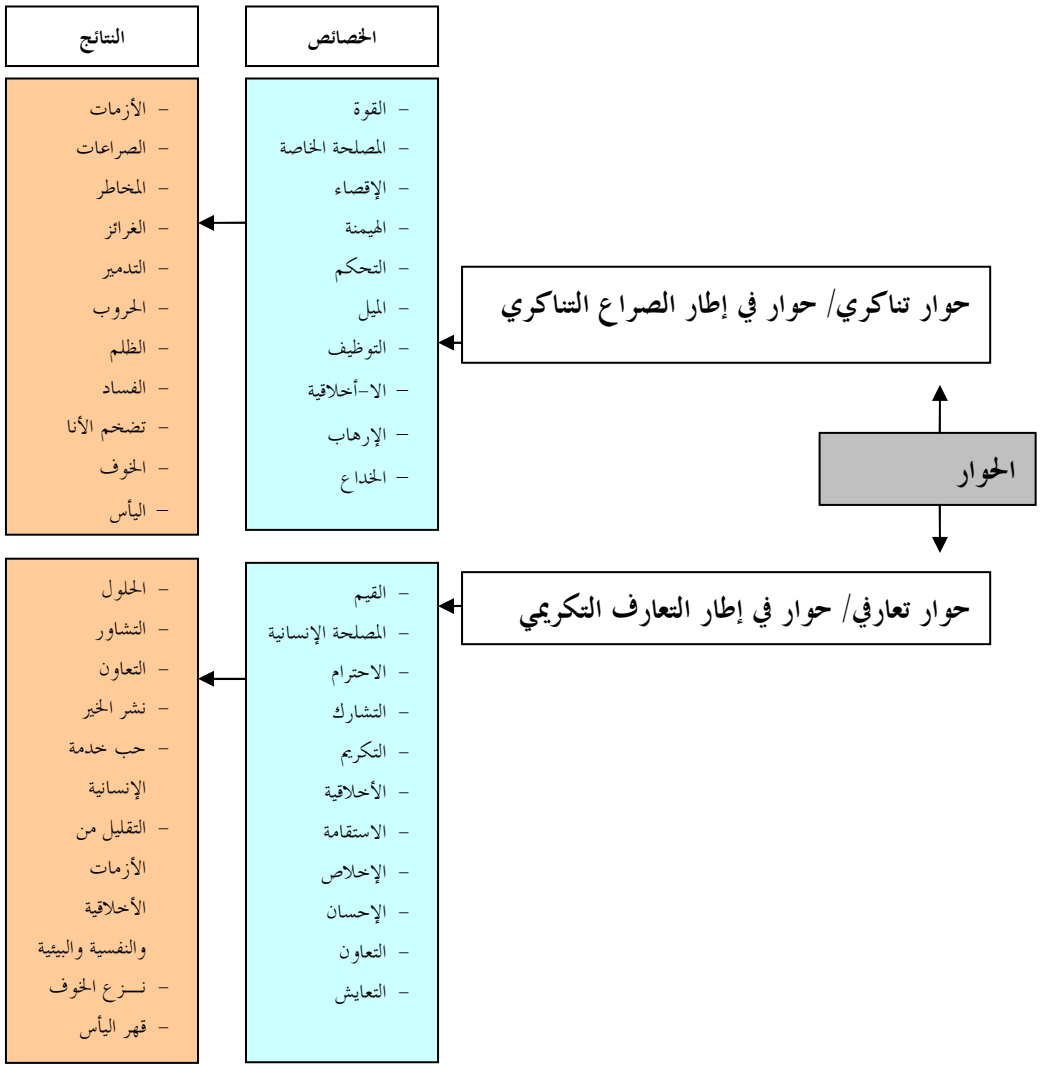

الشكل رقم ٣: نموذجي الحوار مع الذات ومع الآخر

٢. قيم التعارف الإسلامي ضمانة للحوار والتواصل مع الآخر:

من الواضح أن الإسلام يدعو إلى الحوار الذي تحكمه قيم التعارف التي تدعو إلى التكريم، والتسامح، والإقناع، والتواصل، والتفاعل مع الآخرين، والتعاون والتعايش، والسّلم، والإحسان، والمعروف، والعدالة، والمساواة، والإقناع والمحاججة بالبرهان، والإقناع بالعقل، والدليل. وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم،[٣٧] تدور موضوعاتها ومعانيها حول الحوار التعارفي، الذي يهدف إلى التفاعل والتواصل مع الآخر في إطار الدعوة أو التفاهم، أو التعاون أو التشاور أو التشارك أو التعايش أو الإحسان، والدفع بالتي هي أحسن.

٣. الحوار ومنطق التصادم والصراع الحضاري:[٣٨]

وإذا كان من المفروض أن يُحكم الحوار في الإسلام بمنظومة التعارف ومفرداتها، وقيمها، وأخلاقياتها وضوابطها، فإنه ينبغي أن يكون واضحاً تماماً أن هذا الحوار يتم في واقع إنساني، ويقع في ظل تفاعلات، وتجاذبات اجتماعية وعقدية وحضارية وثقافية ضخمة داخل حركة المجتمع. وينبغي أن يكون واضحاً كذلك أن هذا الواقع الإنساني،

---

[٣٧] ومثال ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥)، ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (الأنفال: ٥-٦)، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦-٤٨)، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ (الانبياء: ٢٤)، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨)، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

[٣٨] الأسد، ناصر الدين. **نحن والآخر: صراع وحوار**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧م، ص٧٠ وما بعدها.

الذي تنشأ فيه مجتمعات وحضارات وثقافات، تنتمي كل واحدة منها إلى رؤية كونية وتتبنى ديناً وعقيدة معينة مختلفة، تؤدي إلى الاختلاف، وذلك بسبب طبيعة الوجود البشري، وطبيعة قوانين الخلق، والفطرة، والاستخلاف.

وهذا الاختلاف قيمة من قيم الاجتماع الإنساني، وسنة من سنن الاستخلاف العامة كما تشير إلى ذلك توجيهات القرآن في مثل قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨-١١٩) فالاختلاف الذي هو سنة من سنن الاجتماع البشري، وقيمة إنسانية مهمة غاياتها كثيرة، منها: الابتلاء وإغناء التجربة الإنسانية بالآراء والتوجهات والنزعات والميول المختلفة. وإذا ما بقي الاختلاف بين الناس في الآراء والتوجهات والأفكار في إطار ضوابطه، وأخلاقياته، وشروطه، يكون مثمراً وبنّاءً ومفيداً لإغناء خبرات البشر، وتعزيز معارفهم وأفهامهم. ولكن الذي يحدث في واقع الحياة، وفي سياق الفعل الإنساني، هو أن كثيراً ما يُحوّل الاختلاف المشروع إلى خلاف ونزاع، ثم إلى صراعات وحروب وقتل وتدمير، وعندما تغيب البوصلة، ويغيب النور الذي يكشف طريق الحق، يصبح الصراع وديناميكياته القاتلة هي الحاكمة لحركية الحياة ومساراتها، وكأن العالم كله يتصارع ويتقاتل، ويستخدم أدوات الصراع الرهيبة والقاتلة مثل: الأسلحة الفتاكة، والحروب، والفوضى الخلاقة، والتخويف النفسي، والقهر الصراعي، وغيرها.

والملاحظ اليوم في واقع الحياة، وفي مسيرة المجتمع الإنساني بعد أن دخل لحظة العولمة، وعصر العالمية، أن منطق الصراع وآلياته[٣٩] -التي تتحكم فيها القوى الكبرى- تقوم بتفكيك العالم، وإعادة تركيبه من جديد، وفقاً لمقولات النموذج الحضاري الغالب، وكل من لا يسير وفق هذا النموذج يُعدّ معادياً ومخالفاً ومتخلفاً وعائقاً على طريق عولمة العالم، وإدخاله في عالم النموذج الغربي الليبرالي المهيمن. إن انتشار منطق

[٣٩] جدعان، فهمي. "متى تحين لحظة الحوار؟ بحثاً عن الإسلام الحضاري"، **مجلة العربي**، الكويت: وزارة الإعلام، ع٥١٩، فبراير ٢٠٠٢م، ص١١٣-١١٤.

الصراع بحركيته المدمرة التي تنفي بطبيعتها منطق التكريم والاحترام، وإشراك الجميع في تسيير شؤون العالم، هو الذي يحتم على المسلم اليوم تحديد فعاليته من أجل المساهمة في إنقاذ الحضارة الإنسانية من هذه الفوضى الخلاقة. إن الإنسانية اليوم بأمس الحاجة إلى فلسفة المسلمين في التواصل والتفاعل والتعارف.

ولما كان الصراع والتصادم والهيمنة صفة أصيلة من صفات النماذج الاستعمارية[٤٠] في العالم منذ الإمبراطورية القديمة، ومروراً بالإمبراطورية الرومانية الهيلينية الإغريقية ومثيلاتها، وتعريجاً على إمبراطوريات الاستعمار المعاصر، ووصولا إلى الأشكال الجديدة للتصادم والصراع والهيمنة، فإنه من الواضح أن قسماً كبيراً من الثقافة الغربية الحديثة يوظِّف منطق التصادم، وآلياته، وأدواته، وسيكولوجياته، وفي صلته مع الآخر، من أجل تحقيق مصالحه، وتجديد هيمنته ومركزيته واستقطابيته للآخرين. وهذا المنطق التصادمي والصراعي هو الذي ينعكس جلياً في الكثير من الكتابات القديمة والحديثة، وخاصة في السنوات العشرين الماضية؛ إذ إن كتابات مثل: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ والإنسان الجديد، وموت الإله، ونهاية الدولة، ونهاية الحضارة، ونهاية الإنسان، والعولمة المسطحة، والفوضى الخلاقة، وأسلحة المستقبل الفتاكة، وغزو الفضاء من أجل استمرار الهيمنة، والهندسة الجينية من أجل السيطرة،...كلها وغيرها إنما تجسد صورة من صور منطق الصراع وفلسفة التصادم التي تحكم صلة الحضارة الغربية المهيمنة في تفاعلاتها، وصلاتها مع الآخر.

وفق هذا المنطق وهذا الاتجاه التصادمي الصراعي يصبح الحوار نفسه مع الآخر وسيلة وأداة من أدوات الصراع والتصادم فحسب؛ إذ يوظف الحوار من أجل كسب معارك معينة، وتجديد فعالية القوة المهيمنة في ساحات النزال والمواجهة. وقد وصف لنا الأستاذ النورسي -بطريقة بارعة- طبيعة هذا النسق الغربي[٤١] الصراعي التصادمي في قوله: "إن أسس المدنية الحاضرة سلبية،[٤٢] وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها.

---

[٤٠] شيلر، هربرت. **الاتصال والهيمنة الثقافية**، ترجمة: وجيه سمعان، القاهرة: الهيئة المصرية، ١٩٩٣م، ص٢١ وما بعدها.

[٤١] هذا لا يعني أنه في الغرب الحديث لا توجد أصوات تدعو إلى الحوار، والتفاعل، واحترام الآخرين، إلخ.

[٤٢] هذا لا يعني خلو هذه المدنية من الإيجابيات، وقد أشار إليها النورسي في أعماله.

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الخيانة. دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السَّفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنويا."[٤٣]

٤. الحوار في إطار التعارف ومنطق التدافع والتكامل الحضاري:

ولما كان اتجاه التصادم والصراع الحضاري حاضراً دوماً في نظرة الإمبراطوريات والحضارات الاستعمارية، وفلسفتها وأنشطتها وأفعالها مع الآخر، فإن دين الإسلام، الذي يدعو إلى التعارف الحضاري التكريمي لكل البشر، يقدم لنا بديلاً موضوعياً وأخلاقياً لفكرة التصادم الحضاري، ومنطق الصراع الفتاك، الذي لا يعير للقيم والأخلاق أية قيمة أو مكانة في عالم الصراع.

إن الإسلام بواقعيته المتوازنة والأصيلة لا يريد أن يرسم للعالم صورة عالم ملائكي لا فساد ولا اقتتال ولا نزاع فيه مثل اليوطوبيات (المثاليات) القديمة، ولا يدعو إلى فتح المجال أمام الفساد والاقتتال والصراع والتصادم القاتل. فالإسلام يُقرّ بطبيعة الإنسان المزدوجة التي تحمل قابليات الخير والشر معاً، ويُقرّ بضرورة الاختلاف بين الناس، وبأن الابتلاء لا يتم على وجهه الحقيقي إلا في ظل التفاعلات الإنسانية، التي تعكس توجهات الناس من أكثرها خيرية وقصدية وأخلاقية إلى أسوئها شراً وصراعاً وفتكاً، ويُقرّ كذلك بأن من البشر من سينزع إلى سفك الدماء والفساد والظلم،

[٤٣] النورسي. **كليات رسائل النور: الكلمات**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، إستانبول: دار سوزلر للنشر، ١٩٩٢م، ص٨٥٥.

وكذلك من سيتوجه إلى الخير والصلاح والإحسان. وهذا الوضع هو الذي يؤدي إلى المواجهات والاستجابات السلبية والإيجابية للناس بحسب رؤاهم الكونية وتصوراتهم الدينية وتوجهاهم الحضارية.

وحتى يضع الإسلام طاقة الناس في موقعها الصحيح، ولا يغمطها حقها في التواصل والتفاعل، ويخفف من الآثار القاتلة لمنطق الصراع والتصادم والقتل وسفك الدماء، فإنه يدعو إلى فكرة "التدافع الحضاري". ولهذا نجد الإسلام دوماً يحض على التسابق في اكتساب صفات الخير والصلاح مثل: "الإيمان والتقوى ومحاسن الأخلاق...لأن اكتساب هذه الصفات والتسابق في ميادينها"[٤٤] هو المطلوب شرعاً وعقلاً وواقعاً.

والإسلام يدعو إلى "التدافع الحضاري" بديلاً عن منطق التصادم والصراع المهلك الذي لا يضبطه ضابط، ولا تحكمه قيم وغايات إلا الفَصْل عن المصالح والقوة والهيمنة، وتحقيق الهدف الذاتي مهما كانت النتائج.

ويمكن أن ننطلق في تحديد المقصود من التدافع الحضاري من التعريف الآتي: "التدافع بوصفه آلية سُننية لتحقيق المقاصد التربوية والاجتماعية والسياسية... العامة للابتلاء، يعني تسابقاً وتزاحماً وتغالباً دائباً بين الرغبات والإرادات، وبين الحاجات والتحديات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الثقافات والحضارات من أجل البقاء مرة، ومن أجل تأكيد الحضور والمساهمة مرة أخرى، ومن أجل تحقيق ديمومة واطّراد الهيمنة والسيادة في نهاية المطاف، سواء تم ذلك في سياق الوعي بقانون الابتلاء والاستجابة لمقتضياته العقدية والتسخيرية والاستخلافية، أم في سياق الذهول عنه، والاستجابة للرغبات والحاجات المنبثقة من تكامل إيحاءات وإلحاحات الغرائز السافلة من جهة، والتعضيد أو التعزيز الشيطاني لذلك من ناحية أخرى."[٤٥]

---

[٤٤] عمارة، محمد. **احترام المقدسات، خيرية الأمة، عوامل تفوق الإسلام**، سلسلة هذا هو الإسلام، رقم٣، القاهرة: مكتبة الشروف الدولية، ط١، ٢٠٠٥م، ص٤١.

[٤٥] برغوث، الطيب. **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية: دراسة في سنن التغيير الاجتماعي**، كوالالمبور: مركز التعارف الحضاري والتربية، ٢٠٠٢م، ص٣٩.

ومن أجل فهم أعمق لمفهوم "التدافع الحضاري" الإسلامي في سياق هذا البحث ينبغي التأسيس على بعض النصوص القرآنية من مثل:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١) ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩٦) ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤) ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٩).

إن هذه النصوص القرآنية تؤسس لرؤية في الصلة مع الآخر، وهذه الرؤية مكمِّلة ومتساوقة مع الفكرة الأولى التي تتحدث عن "التعارف". فصلة المسلم مع الآخر محكومة من جهة بإطار التعارف وغايته وأخلاقياته وشرائطه، ومن جهة ثانية تخضع لسنة التدافع. وآيات سورتي البقرة والحج تشيران بوضوح إلى الأمور الآتية:

أولاً: الدفع الإلهي: والمقصود هنا هو ضرورة إرجاع الدفع وسننه إلى الحق تبارك وتعالى، فهو الآمر والناهي بحكمته وعدله وقدرته. وثانياً: الناس: والمقصود هنا أن الدفع أو التدافع يقع في واقع البشر، وفيما بينهم، وعلى بعضهم بعضاً بوصفهم أفراداً وجماعات من مختلف الأديان والأجناس والثقافات والحضارات والأمم. وثالثاً: الفساد في الأرض والهدم فيها. ورابعاً: أن في التدافع والدفع نصرة الله سبحانه وتعالى لمن ينصره. وخامساً: أن في التدافع والدفع فضل الله على العالمين.

وأما الآيات في سورتي "المؤمنون" و"فصلت" فتشيران إلى: الدفع بالتي هي أحسن. وأما الآية في سورة الرعد فتشير إلى: مفهوم ضرب الله الحق والباطل، وذهاب الزَّبد ومكوث النافع، وضرب الأمثال.

في ضوء هذه الآيات يمكن الحديث عن رؤية إسلامية واضحة في التفاعل والتواصل مع الآخر، سواء في أوقات السلم أم في أوقات الحرب.[٤٦] إن مفهوم "التدافع[٤٧] الحضاري" الإسلامي، يؤسس لمنهج أخلاقي منضبط في منع وصول نزاعات الناس وتفاعلاتهم إلى لحظات ومراحل الفساد والهدم، الذي تضيع بموجبه مصالح الناس وتسفك الدماء، ويستشري الظلم والقتل في حياتهم. فالتدافع الحضاري[٤٨] الإسلامي بوصفه بديلاً لفلسفة التصادم الحضاري ومنطق الصراع الحضاري، يبين لنا أن العلاقات والصلات مع الآخر ينبغي أن تُحكم بسنن التدافع الربانية، وهدف هذه السُّنن هو إخراج الناس عن توجيه طاقاتهم للصراع والصدام غير المشروع، الذي لا تحكمه قيم ولا أخلاق. فالدفع أو التدافع في الإسلام ينبغي أن يحكم بضابطين على الأقل، أولاً: منع الفساد والهدم، وثانياً: بالإحسان وبالتي هي أحسن. فالغاية هي منع الفساد، والمنهج هو بالتي هي أحسن. وفي هذين الضابطين تكمن حقيقة نظرية التدافع الحضاري في الإسلام، وتتجسد كل القيم الأخلاقية التي تحكم صلة المسلم بالآخر. والمسلم في صلته مع الآخر في لحظات السلام والسلم، عليه أن يتدافع معه من أجل منع الفساد والهدم، وبالإحسان. وكذلك في لحظات الحرب، والاقتتال، والصدام،

---

[٤٦] يمكننا أيضاً أن نلاحظ بعض القيم التي تضبط التدافع الذي يكون جهادياً أو عسكرياً في الأحاديث النبوية الآتية:

قال صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) (رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس)؛ (يا أيها الناس أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا يومٌ حرام، قال فأيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا بلدٌ حرام، قال فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا شهرٌ حرام، قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مراراً) (رواه البخاري في كتاب الحج باب الخُطبة أيام منى)؛ (قال صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) (رواه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة).

[٤٧] هناك مصطلحات متعددة ذات علاقة بمفهوم التدافع مثل: التصارع الذي يعني: "الطرح بالأرض...صارعه فصرعه صرعاً وصرعاً..والمصارعة والصراع: معالجتهما أيهما يصرع صاحبه..." انظر:

– ابن منظور. **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٨، ص١٩٧. وكلمة "التصادم" تعني لغوياً: "ضرب الشيء الصلب بشيء مثله. وصدمه صدماً ضربه بجسده... والتصادم التزاحم..." انظر:

– ابن منظور. **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١٢، ص٣٣٤. وغيرها من المصطلحات.

[٤٨] التدافع قد يكون دينياً أو اقتصادياً أو سياسياً، أو علمياً فكرياً، أو تقنياً، أو ثقافياً حضارياً، أو صناعياً أو عسكرياً قتالياً، أو على الأصعدة كلها.

والنـــزاع عليه أن يمارس التدافع المنضبط من أجل وقف الفساد والهدم ويمارسه بـــالتي هي أحسن.

وخير دليل نقدمه في تدافع المسلمين مع الآخر في أوقات الحرب والنـــزاع، هـــو أخلاقيات الحرب، وحقوق الأسير، وحرمة دماء الأبرياء، وضرورة المحافظـــة علـــى الأرض والعمران والشجر وغيرها أثناء التصادم والتقاتل، فاستناداً إلى نظريـــة صـــدام الحضارات وصراعها يصبح القانون الغالب هو الإلغاء والإفناء لكل شيء، من أجـــل النصر وقهر الطرف الآخر، ولكن بناء على نظرية التدافع الإسلامي، فإن كل حركـــة أو سكنة أو قرار أو موقف إزاء الآخر ينبغي أن يضبط بالشرع، ويُحكم بأخلاقيـــات وضوابط تحافظ على حقوق الإنسان وكرامته، حتى في حالات الحـــرب والغضـــب والصدام العنيف.

وفي هذا الشكل التوضحي بيانٌ لأهم الأبعاد والعناصر الأساسية التي تـــدخل في تحديد نظرية التدافع الإسلامي:

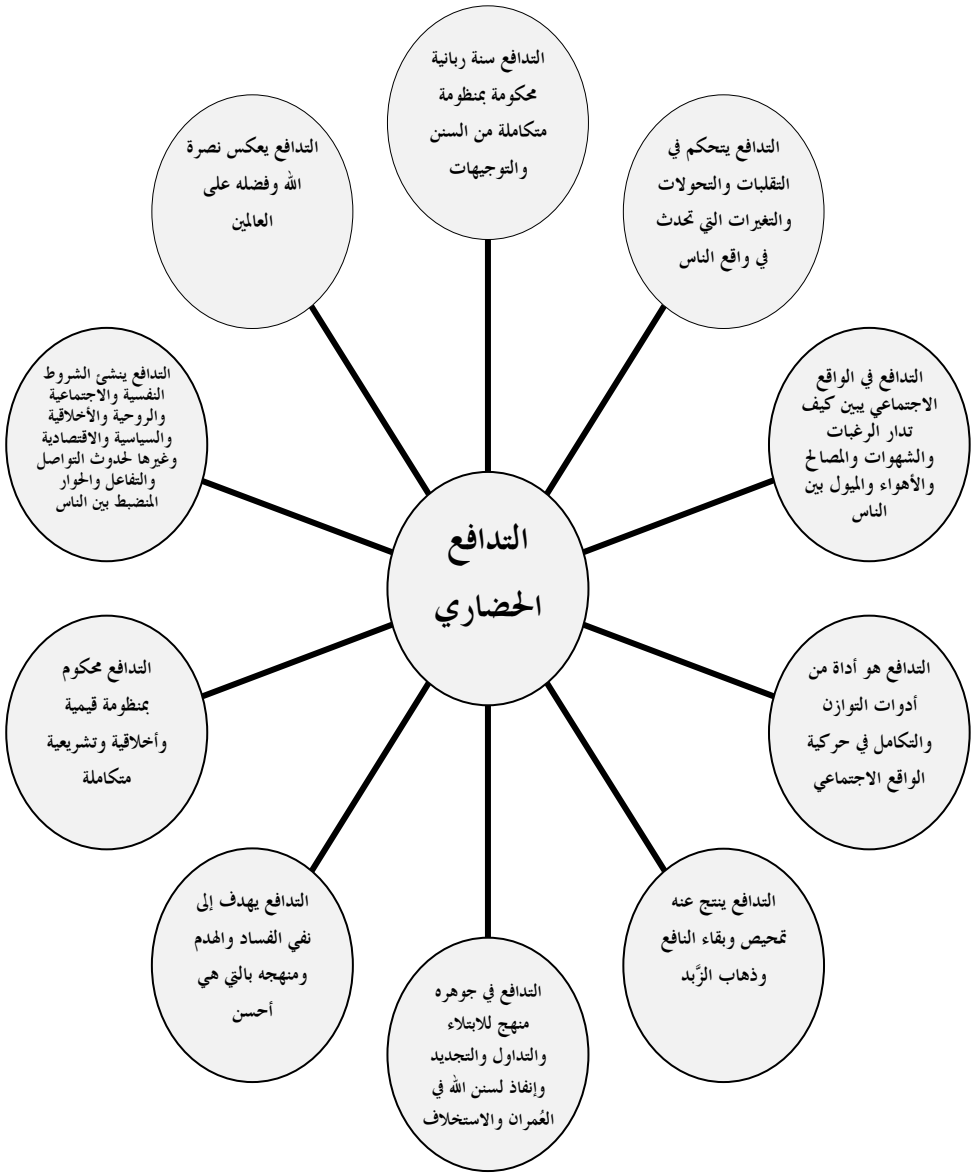

الشكل رقم ٤: أبعاد التدافع الحضاري وحقيقته

من هذا التحديد لمسألة التدافع الحضاري[٤٩] يمكن القول إن حوار المسلم مع الآخر ينبغي أن يضبط ضمن إطار "التعارف الحضاري"، كما ينبغي لـه أن يُحكـم بسـنة "التدافع الحضاري". فحينما يخوض المسلم حواره مع الآخرين عليه أن يستحضر هـذا الإطار التعارفي التكريمي للناس جميعا، وعليه كذلك أن يكون واعياً على سنن التـدافع وآلياته وشرائطه وأخلاقياته؛ لكي يتجنب منطق الصراع والتصادم الذي ينفي الآخـر ويعمل على قهره وإلغائه تماماً جرياً مع سنة الإفناء والإزالة. وكلمـا ارتقـى إدراك المسلم ووعيه وتحكّمه في هذا الإطار التعارفي، وفي سُنن التدافع، أثمر حواره وانضـبط بقيم الإسلام وأخلاقياته، وحقق أهداف الإسلام، وجسّد خصائصه في الواقع الإنساني المعضل.

ويصور لنا الأستاذ النورسي حقيقة نظرة الإسلام، وشريعته، والأسس التي تقـوم عليها في قوله: "إن نقطة استنادها هي: الحق بدلاً من القوة، والحق شـأنه: العدالـة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبـة والتجـاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية، وهذه شأنها: الأخوة الخالصة والسلام والوئام والذود عـن البلاد عند اعتداء الأجانب. ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصـراع والجـدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدي بدل الهوى ليكون حاكمـا علـى الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدي: رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحد الهوى وتحد من النـزعات النفسانية تطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي."[٥٠]

خاتمة:

من خلال هذا التحليل المقتضب لموضوع الحوار مع الآخر، بـين اتجـاه صـدام الحضارات وقيم التعارف الحضاري، يتبين لنا كيف أن الإسلام دين يدعو إلى الحـوار

[٤٩] انظر أبحاث مؤتمر: **الدين والتدافع الحضاري**، المنعقد في مالطا، ٦-١١ ربيع الآخر ١٣٩٨، مالطا: منشورات رسالة الجهاد.

[٥٠] النورسي. **كليات رسائل النور: المكتوبات** (٢)، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، إستانبول: دار سوزلر للنشر، ط٢، ١٩٩٢م، ص٣٥٩.

ويُشجعه، ويجعله موقفاً أصيلاً في دعوته ورؤيته للآخرين من أصحاب الأديان والملل، كما يجعله وسيلة مهمة للتواصل بين المسلمين أنفسهم قبل غيرهم، وكيف أن الحوار البنّاء والإيجابي مهم جداً في التربية الأسرية والاجتماعية للفرد المسلم. ويضيف الإسلام أبعادا مهمة جدا لقضية الحوار حين يربطه بإطار التعارف الحضاري من جهة، وحين يؤطره ضمن سنة التدافع الحضاري من جهة أخرى، فيكون المسلم بذلك مؤهلاً من ناحيتين على الأقل، من ناحية تسلحه بالقيم والأخلاق والأهداف والمقاصد التي يوفرها إطار التعارف، والمنهج الإحساني التكريمي الذي ينبني عليه، ومن ناحية وعيه على سنة التدافع الحضاري، التي تجعل حواره وتواصله وتفاعله مع الآخرين ضمن نطاق سنن الله فلا حيد عنها، ولا تحوّل بعد ذلك إلى صدام عابث وفوضى خلاقة وصراع فتاك.

وما من شكّ في انّ موضوع التعارف والتدافع يحتاج إلى جهود عملية للكشف عنه، ومنها: تكثيف الأنشطة الرسمية والجماهيرية التي تسعى إلى نشر ثقافة الحوار وتعزيز قيم التعارف في وعي المسلم وشخصيته، وتأسيس منتديات للتعارف بين المسلمين أنفسهم، وللتعارف مع الآخرين، عن طريق إرسال بعثات أو استقبال وفود، أو توفير المعلومات اللازمة لهم عن الإسلام والمسلمين، وإنشاء مركز بحثي عالمي يضم الخبرات والكوادر الإسلامية من مختلف البلدان يكون هدفه وضع خطط واستراتيجيات لنشر ثقافة التعارف، وتعزيز دور الجامعات في نشر ثقافة الحوار والتعارف والتدافع الأخلاقي المنضبط، وعرض مقررات ومواد دراسية في المستويات الثانوية والجامعية العليا، تُعنى بتأهيل الطلبة والباحثين علمياً وفكرياً، وتزويدهم بالقدرات الحوارية والتعارفية المطلوبة في بناء ثقافة التعارف، وتعزيز وتدعيم العلاقات مع المؤسسات والمراكز الدولية التي يهمها أمر الحق وأمر التعارف والحوار والتواصل المخلص، وتأسيس مركز معلومات عن تجارب المسلمين المختلفة في التعايش والتفاعل والحوار والتعارف مع الأديان الأخرى في سلام ووئام دون صدام وعنف؛ إذ إنّ هناك دولاً إسلامية كثيرة تقدم نماذج رائدة في التعايش والسلام والوئام والتفاعل مع الآخرين، والتركيز على الدراسات العلمية المتخصصة لحالات حوارية واتصالية، سواء فيما تم في الماضي أم ما يحدث الآن في الواقع، وذلك من أجل استخراج القوانين والضوابط والنماذج التي تحكم التفاعلات بين الحضارات والثقافات.